تلقي الصحيفة الهندية و أثرها في الدرس البلاغي العربي

Receiving the Indian newspaper and its impact on the Arabic rhetorical lesson

د. علي قاسم محمد الخرابشة1،*

1جامعة عجلون الوطنية(الأردن)aligassem85@yahoo.com

تاريخ الإيداع: 2022/08/29 **تاريخ المراجعة**:2022/09/16 **تاريخ النشر**: 2022/12/31

ملخص:

تناول الباحث واحدة من أهم الصحف البلاغية التي كان لها تأثير في إرساء الأسس البلاغية للدرس البلاغي العربي، وهي الصحيفة الهندية التي كان محورها البلاغة وشروطها التي وردت في مصدرين مهمين من مصادر اللغة العربية، وهما : كتاب البيان والتبيين للجاحظ. وكتب الصناعتين لأبي هلال العسكري. ودراسة أبرز ما ركزت عليه من محاور بلاغية، ثم بيان أثر هذه الصحيفة على معاصري كل من الجاحظ وأبي هلال العسكري. لقد جاء البحث مشتملا على مقدمة ومبحثين وخاتمة. ففي المقدمة، تناول الباحث بشكل موجز واقع البلاغة في العصر العباسي، وفي المبحث الأول،مادة الصحيفة الهندية، وفي الثاني، أثر هذه الصحيفة على النقاد المعاصرين للجاحظ وأبي هلال العسكري، في حين تناولت الخاتمة أهم النتائج التي خرج بها الباحث من خلال دراسته لهذه الصحيفة. ويهدف هذا البحث إلى إظهار أهم الأبعاد والدلالات التي تناولتها هذه الصحيفة.

الكلمات المفتاحية: الصحيفة الهندية، البلاغة، أبو هلال العسكري .

Abstract

In this research, the researcher dealt with the rhetorical newspapers that had a clear impact in laying the rhetorical foundations for the ancient and modern Arabic rhetorical lesson, which is the Indian newspaper whose focus was rhetoric and its conditions. A study of the most prominent ideas, meanings and rhetorical themes focused on, and then a statement of the impact of this newspaper on the ancient critics. The research came with an introduction, two chapters and a conclusion. In the introduction, the researcher dealt with the reality of rhetoric in the Abbasid era, and in the first section, the material of the Hindi newspaper, and in the second, the impact of this newspaper on critics in the Abbasid era, while the conclusion dealt with the most important results.

***Keywords**: Hindi newspaper, rhetoric, Abu Hilal Al-Askari*

***المؤلف المراسل.**

تقديم:

يعتبر كتاب البيان والتبيين للجاحظ من أقدم الكتب وأهم المصادر التي ورد فيها نص الصحيفة الهندية إذ أورد المؤلف نصها في باب البيان بقوله:" قال معمر أبو الأشعث: قلت لبهلة الهندي أيام اجتلب يحي بن خالد أطباء الهند مثل (منكة) و (بازكير) و (قلبرقل) و (سندباد) وفلان ، وفلان ، ما البلاغة عند أهل الهند ؟ قال بهلة : عندنا في ذلك صحيفة مكتوبة لا أحسن ترجمتها لك، ولم أعالج هذه الصناعة ، فأثق من نفسي بالقيام بخصائصها وتلخيص لطائف معانيها . قال أبو الأشعث : فلقيت بتلك الصحيفة التراجمة فإذا فيها ".[1]

ثم وردت غير كاملة في كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة تحت كتاب العلم والبيان بقوله" وفي كتاب للهند"[2]لكن المؤلف لم يورد نصها كما ورد عند الجاحظ في كتابه البيان والتبيين .

كما وردت في كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري في الفصل الثالث من الباب الأول ، وهو القول في تفسير ما جاء عن الحكماء والعلماء في حدود البلاغة ، بالقول التالي : " وقال حكيم الهند ".[3]

لكن قبل الشروع في الوقوف عند جوانب هذه الصحيفة، لابد من الإشارة أولاً إلى أن هناك قواسم مشتركة بين الصحيفة الهندية وبعض الصحف التي أوردها الجاحظ في كتابه وهي صحيفة بشر بن المعتمر، إذ " قررت صحيفة بشر أشياء مشتركة بين نقد الخطابة، ونقد النثر منها اعتبار اللحظات التي يسمح فيها القول والابتعاد عن الكد والاستكراه والملائمة بين اللفظ والمعنى، فالمعنى الكريم يحتاج لفظاً كريماً، وليس ذلك بأن يكون المعنى من معاني الخاصة والبليغ التام من استطاع أن يفهم العامة معاني الخاصة ثم لابد من الملائمة بين المعنى والمستمعين ، فلكل طبقة كلام ولكل حالة مقام".[4]

أما الدارس للصحيفة الهندية بين كتابي البيان والتبين والصناعتين، فلا يجد ذلك الاختلاف الكبير بيم ما يكتبه الجاحظ وما كتبه أبو هلال العسكري، ولا يجد أيضاً الباحث ذلك الاختلاف الذي يفكر فيه أي دارس لهذه الصحيفة من ناحية المعاني في كلا النسختين بل هناك بعض الفروق التي تظهر في الصحيفة من ناحية تغيير بعض الألفاظ في مواضعها أو حذف بعضها ، ولعل هذا يعود إلى أن الصحيفة كانت تتناقل شفوياً بين الأدباء والكتاب ، ولكنه في نهاية الأمر لا يدل على تغيير واضح في معاني وأفكار كل من النسختين . و تتأتى أهمية الدراسة في محاولة كشف مواطن القضايا التي دارت حولها بعض الصحف البلاغية، وخاصة أن مثل هذه الصحف تكشف عن الكثير من الأسس التي أرسيت لنهج الأدباء آنذاك، وبالتالي تشكل صورة من العمل الشّعري للشاعر والناثر معا. لهذا قامت إشكالية البحث. ومن هذا المنطلق حاول الباحث الإجابة على السؤالين التاليين :

1- ما القضايا التي تناولها الحكيم الهندي في صحيفه. ؟

2- ما تأثير القضايا التي تناولتها الصحيفة الهندية على نقاد العصر آنذاك؟

أما المنهج الذي قامت عليه دراسة هذه الصحيفة فهو المنهج التحليلي الذي يقوم على استقصاء القضايا التي تناولتها الصحيفة وبيان أثرها على معاصري الجاحظ وأبي هلال العسكري، ورصد الشواهد الشعرية الدالة على هذه القضايا، ومن ثم تحليلها وتفسيرها.

عرفت السنوات الأخيرة ظهور عدد من الدّراسات المتعلقة بالقضايا النقدية وفق تصورات تستند إلى رؤيوية حديثة تتناول الظاهرة من مختلف جوانبها الفكرية. كما أن نظرة الدارسين لمثل هذه القضايا كانت من عدة زوايا منها، الزاوية التناسبيه والدلالية الأسلوبية والجمالية والتأويلية. وقد قام الباحث بالاطلاع على هذه الدراسات أثناء عرضه لهذه الصحيفة. ومنها على سبيل المثال لا الحصر، كتاب" تاريخ النقد الأدبي والبلاغة حتى القرن الرابع الهجري" لمحمد زغلول سلام، وكتاب" تاريخ النقد الأدبي عند العرب" لإحسان عباس. وكتاب" قضايا النقد بين القديم والحديث" لمحمد عشماوي. وكتاب" مقدمة في النقد الأدبي" لعلي جواد الطاهر. وكتاب " في الأدب والنقد" لشوقي ضيف.

المبحث الأول: مادة الصحيفة الهندية

تناول الجاحظ الصحيفة الهندية وقت كان العمل فيه جار على أشدة في قضية اللفظ والمعنى تلك القضية التي دفعت ابن سلام من قبل لأن يقسم الشعراء إلى طبقات وفق ما يراه من معايير الجودة والإتقان في اللفظ والمعنى. أما المحاور التي تتكون منها هذه الصحيفة فهي:

المحور الأول: ويتمثل في مكونات الخطاب الإبداعي والقواعد والشروط الأساسية للبلاغة، وهي مجموعة الأسس التي تناولها بعض النقاد القدماء كالجاحظ، وابن قتيبة وأبي هلال العسكري من خلال تعريفاتهم للبلاغة وصفات الخطيب، تقول الصحيفة:"وأول البلاغة اجتماع آلة البلاغة " [5]واجتماع آلة البلاغة يدور حول الموهبة، والدربة، والمستوى الثقافي وطبيعة التجربة الأدبية التي يمر بها الخطيب، والشروط التي ينبغي توافرها في الخطيب. فآلة البلاغة تكشف عن وظيفة مهمة من وظائف التلقي وهي الإقناع في الخطبة. وتسخير الأدوات الفنية في التعبير التي تتمثل في جودة القريحة وطلاقة اللسان، لأن جودة القريحة وطلاقة اللسان تنجيان الإنسان من الكثير في الوقوع في الأخطاء والزلل والعيب واجتناب الفحص، والتزم العفة في القول، وما من شأنه أن يشين المرؤة ويورث الفساد".[6]أما السياق الثاني الذي تحدثت عنه الصحيفة فهو الحديث عن البليغ، ويبدو أن البليغ الذي أشبه ما يكون بواحد يلقي خطابا على أرض المعركة، إذ لا يكون أمامه مجال للصقل والتهذيب والمعاودة والمراجعة وبالتالي انعدام التكلف والتقعر والتعمل، وبالتالي يتسم الكلام بالصدق والحرارة الانفعالية

كاستجابة نفسية سريعة. إن موقف الخطيب هذا هو ثمرة انفعالات نفسية دون شحذ أو صقل وأن استجابة لحظية انفعالية لما يشعر به الخطيب في لحظة غير مدروسة أو مهيأ لها من قبل، ينساب الحديث فيها انسياب الماء في مجاريها، خالية من الصنعة والتدبير والتنسيق السبقي" لا يُدقق (المعاني) كلَّ التدقيق، ولا ينقِّح (الألفاظ) كلَّ التنقيح، ولا يُصفِّيها كلَّ التصفية، ولا يُهذِّبها غاية التهذيب، ولا يفعل ذلك حتى يصادف (حكيماً) أو (فيلسوفاً) عليما، ومَنْ قد تعوَّد (حذف) (فضول الكلام)، و(إسقاط) (مشتركات الألفاظ)، وقد نظر في صناعة (المنطق) على جهة (الصناعة) و(المبالغة)"، وثالثها يُلحظ حين بيَّن أنَّ مدار الأمر على إحراز (المنفعة) و(الفهم) و(الإفهام)، كلٌّ بحسب طاقته ومنزلته. وتؤدي الناحية الشعورية دوراً مهماً في تحقيق شروط البلاغة في الخطيب، في أن يكون الخطيب (المتحدث) رابط الجأش، ساكن النفس، وذلك لأن الحيرة والدهشة تورثان الحبسة والحصر، وعلاقة سكون نفس الخطيب، ورباطة جأشه، هدوه في علامه وتمهد منطقه.

أما المحور الثاني الذي أشارت إليه الصحيفه، فهو اللفظ، إذ إن قضية اللفظ استطاعت أن تفرض نفسها على نقاد القرن الثالث والرابع الهجريين بصورة واضحة وجلية حيث لا نرى كاتبا إلا وتطرق إليها ضمن آرائه النقدية، تحت باب اللفظ والمعنى من زوايا مختلفة، فمنهم من مال بآرائه إلى اللفظ، ومنهم من مال إلى المعنى، ومنهم من لجأ إلى التوفيق بين اللفظ والمعنى، ومنهم من كتب في الموازنات كالتي كتبت بين أبي تمام والبحتري، وهي من أخطر مسائل النقد العربي. تقول الصحيفة:" وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح،قليل اللحظ، متخير اللفظ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ولا الملوك بكلام السوقة. ويكون في قواه فضل التصرف في كل طبقة، ولا يدقق المعاني كلّ التدقيق، ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح، ولا يصفها كل التصفية، ولا يهذبها غاية التهذيب، ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيما، أو فيلسوفا عليما، ومن قد تعوّد حذف فضول الكلام، وإسقاط مشتركات الألفاظ، وقد نظر في صناعة المنطق على جهة الصناعة والمبالغة، لا على جهة الاعتراض والتصفح، وعلى وجه الاستطراف والتظرف.[7]

ويشير الجاحظ إلى أهمية اللفظ وأثره على المعنى بقوله :" فإن المعنى إذا اكتسى لفظاً حسناً وأعادره البليغ مخرجاً سهلاً ، ومنحه المتكلم قولاً متعشقاً صار قلبك وصدرك أملاً ، والمعاني إذا كسيت الألفاظ الكريمة ، وألبست الأوصاف الرفيقة تحولت في العيون عن مقادير صدرها وأربت عن حقائق أقدارها بقدر ما زينت وعلى حسب ما زخرفت".[8]

وقال :" وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عامياً وساقطاً سوقياً، فكذلك لا ينبغي أن يكونة غريباً وحشياً، إلا أن يكون المتكلم أعرابياً، فإن الوحشي من الكلام بفهمه الوحشي من الناس، كما يفهم السوقي رطانة السوقي وكلام الناس في طبقات ، كما أن الناس أنفسهم في طبقات ، فمن الكلام الجزل والسخيف والمليح والحسن والقبيح والسميح والخفيف، والثقيل، وكله عربي وبكل قد تمادحوا وتعايبوا".[9]

أما شق المتلقي ففي هذا الجانب كان واضحا في الصحيفة وهذا ما دفع الحكيم الهندي أن يقول:" لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ولا الملوك بكلام السوقة. ويكون في قواه فضل التصرف في كل طبقة.[10]

لقد كانت آراء أبي هلال جرياً على الخط المعتزلي الذي تبناه الكثير من النقاد في العصر العباسي، ويشير إلى عدم قبوله البلاغة على الإيصال فحسب كما كان يتصورها الجاحظ من قبل. يقول:" ومن الدليل على أن المعاني فقط، لأن الردئ من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها في مطالعه، وحسن مقاطعه وبديع مباديه، وغريب مبانيه على فضل قائله ومنهم منشيه .. وأكثر هذه الأوصاف ترجع إلى الألفاظ دون المعاني .. وتوخي صواب المعنى أحسن من توخي صواب هذه الأمور في الألفاظ .. ولهذا تأنق الكاتب في الرسالة ، والخطيب في الخطبة والشّاعر في القصيدة .. يبالغون في تجويدها ويغلون غي ترتيبها، ليدلوا على براعتهم وحذقهم بصناعتهم، ولو كان الأمر في المعاني لطرحوا أكثر ذلك فربحوا كداً كثيراً وأسقطوا عن أنفسهم تعباً طويلاً "[11]

ولم يأت استخدام أبو هلال لكلمة تحسين اللفظ عفواً، ولكن تمشياً مع قناعته الراسخة في عملية الإبداع الأدبي التي يقول فيها:" ولا يكون الكلام بليغاً مع ذلك حتى يعرى من العيب ويتضمن الجزالة والسهولة وجودة الصنعة "[12]

وفي أكثر من مكان أشار إلى أهمية اختيار اللفظ في صناعة الشعر، إذ إن للشاعر صناعته التي تتطلب إحضار المعاني المنظومة في الفكر والخاطرة على القلب ، ليطلب لها وزناً يتأتى فيه إرادها وقافية يتحملها.[13]

إنّ مثل هذا التلقي الذي يحرص الكاتب على إبراز دوره في عملية الإنتاج الأدبي" جدير بالبحث المتأني الذي ينبغي أن يقود إلى توضيحه في مختلف أطوار عملية الإنتاج الأدبي مثلما يقود بالتالي إلى إعادة التوازن للعملية الأدبية ذاتها ، ذلك أن استعادة حقوق المتلقي كاملة في هذه العملية لا يمكن إلا أن يعود بالفهم الأعمق والأغنى والأشمل للنص الأدبي موضع العناية الأكثر جدوى إنتاجاً واستهلاكاً ، خلقاً ، وتذوقاً ، كتابة وقراءة ، إرسالاً واستقبالاً ، بثاً وتلقياً ، لأنه يعيد التكامل الذي طالما انتظرته النظرية النقدية بين القطب الفني الذي هو نص المؤلف ، والقطب الجمالي الذي هو تحقق هذا النص الذي ينجزه القارئ أو المتلقي".[14]

إنّ الصحيفة الهندية في هذا الجانب تكشف عن أهمية المتلقي التي لا يمكن تجاهلها، وأنّ الدراسة المتمعنة لجوانب دوره تبين عن دور إيجابي فاعل ومؤثر لا يمكن إغفاله[15] كما أن المتلقي بدور المستقبل لعملية الانتاج الأدبي يؤثر في إنتاج النص نفسه حتى قيل بدئه ، فهو يحدد اللغة الطبيعسة المستخدمة في إنتاجه".[16]وهذا ما دفع الحكيم الهندي أن يقول :" لا يكلم سيد الأمة ، ولا الملوك بكلام السوقة، ويكون في قواه التصرف في كلّ كبقة .. ولهول تلك المقامات معاوداً ومدار الأمر على إفهام كلّ قوم طاقتهم ، والحمل عليهم على أقدار منازلهم.[17]

وهكذا يتبين أن للتلقي " حضوراً لا يمكن تجاهله في نفس المنتج حتى قبل أن يشرع في عملية إنتاجه لنصه ، حضوراً يجعل منه شريكاً كاملاً لهذا المنتج في كلّ ما يقوم به من خيارات تشمل كلّ جوانب النص الأدبي ومستوياته ، وهذا أمر ليس بمستغرب إذا ما أردك المرء أن الكلمة كما يشير إلى ذلك ميخائيل باختين ، فعل ذو وجهين ، تتحدد بصاحبها ، والمقصود بها بالتساوي أنها منطقة يشترك فيها المخاطب والمخاطب ، والمتحدث ومحاوره . ولا ننسى أن وحدة هذا الفعل ، وتكامل هذه المنطقة لا يمكن أن يتحققا دون التواصل الحقيقي بين المنتج والمتلقي ، لأنه وحده الذي يحمل السلوى الحقيقية لمعاناة المنتج ومكابدته في عملية إنتاجه لنصه الذي يحمل توقيعه الرسمي والرسمي فقط ".[18]

ومعنى هذا أن المتلقي يعتبر ركيزة من أهم ركائز عملية توصيل النص إلى الآخرين لأنه يشارك مشاركة فعالة في إنتاجه .

أما المحور الثالث الذي أشارت إليه هذه الصحيفة فهو الحديث عن المعنى الذي كان أثرها واضحا في قراءة أبي هلال العسكري والجاحظ ومعاصريهم فيه. تقول الصحيفة: ومن علم حق المعنى أن يكون الاسم له طبقا، وتلك الحال له وفقا، ويكون الاسم له لا فاضلا ولا مفضولا، ولا مقصرا، ولا مشتركا، ولا مضمّنا، ويكون مع ذلك ذاكرا لما عقد عليه أول كلامه، ويكون تصفحه لمصادره، في وزن تصفحه لموارده، ويكون لفظه مونقا، ولهول تلك المقامات معاودا. ومدار الأمر على أفهام كل قوم بمقدار طاقتهم، والحمل عليهم على أقدار منازلهم، وأن تواتيه آلاته، وتتصرف معه أداته، ويكون في التهمة لنفسه معتدلا، وفي حسن الظن بها مقتصدا، فإنه إن تجاوز مقدار الحقّ في التهمة لنفسه ظلمها، فأودعها ذلة المظلومين، وإن تجاوز الحق في مقدار حسن الظن بها، آمنها فأودعها تهاون الآمنين. ولكل ذلك مقدار من الشغل، ولكل شغل مقدار من الوهن، ولكل وهن مقدار من الجهل.

ومن يدرس بعض الصحف البلاغية التي وردت في" كتاب البيان والتبيين" للجاحظ، مثل الصحيفة الهندية يجد قاسما مشتركا بين ما أورده الجاحظ في الصحيفة الهندية من معاني الخطابة والشعر والملاءمة بين اللفظ والمعنى،فالمعنى الكريم يحتاج لفظا كريما، وليس ذلك بأن يكون المعنى من معاني الخاصة.[19] وقد أشار أبو هلال إلى هذا المحور عندما قال نقلاً عن صحيفة بشر بن المعتمر: " وينبغي أن تعرف أقدار المعاني فتوازن بينها وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات فتجعل لكل طبقة كلاماً، ولكل حال مقاماً حتى تقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار الحالات".[20]

وقال : " وأعلم أن المنفعة مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال، فإن كنت متكلماً ... أو احتجت إلى عمل خطبة لبعض من تصلح له الخطب، أو قصيدة لبعض من يراد له القصيد .. فتخط ألفاظ المتكلمين مثل: الجسم، والعرض، والكون، والتأليف، والجوهر فإن ذلك هجنة ".[21]

ومن خلال بعض الأمثلة من الشعر العربي، أشار إلى أثر التلقي في نفس المتلقي بقوله: خطب بعضهم فقال: إن الله أنشأ الخلق وسواهم ومكنهم ثم لاشاهم .

فضحكوا منه . وقال بعض المتأخرين :

نور تبين فيه لا هو تيّه فيكاد يعلم علم ما لن يعلما

فأتى من الهجنة بما لا كفاء له.[22]

واستنادا إلى ما ورد في الصحيفة الهندية فإن كثير من أدباء العربية ومنهم الجاحظ الذي نظر من خلالها إلى وظيفة التأليف الأدبي من زاوية أخرى خلاف تلك التي نظر منها كتاب عصره، فليست وظيفة الكتابة عنده مجرد إفراغ مزيج من المعلومات التي تدل على ثقافة الكاتب لكي يتثقف بها القارئ، بل تتمثل وظيفتها بصفة أساسية في الكشف عن شخصية الكاتب وفلسفته اللغوية أو الكلامية أو الأدبية من ناحية، ثم التعبير عن موقفه إزاء أنماط من السلوك البشري في ضوء الحياة التي يعيشها أهل عصره من ناحية أخرى".[23]

وقد استفاد أبو هلال من هذا المحور في الصحيفة في كتابه وخاصة في باب، فيما يحتاج إليه الكاتب إلى ارتسامه وامتثاله في مكتاباته. يقول " فأول ما ينبغي أن تستهله في كتابتك .. وكتابة كلّ فريق منهم على مقدار طبقتهم وقوتهم في المنطق".[24] وفي موضع آخر يقول :" وسبيل ما يكتب به التابع إلى المتبوع في معنى الاستعطاف ومسألة النظراء أن لا يكثر من شكاية الحال ورقتها واسيلاء الخصاصة عليها ، فإن ذلك بجمع إلى الإبرام والاضجار شكاية الرئيس لسوء حاله وفلة ظهور نعمته عليه".[25]

أما أثر هذه الصحيفة على بعض القضايا التي تناولها الجاحظ وأبو هلال في قضية اللفظ والمعنى قد كان واضحاً في قول الجاحظ:" المعاني مطروحة في الطريق ، يعرفها العجمي والقروي والبدوي وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج ، وفي صحة الطبع وجودة السبك ".[26]

أما مسألة التلازم بين اللفظ والمعنى ، فقد أشار إليها الحكيم الهندي في الصحيفة بوصفها صورة لغوية مكتملة التركيب والدلالة، ولذلك فإنه على الكاتب شاعراً كان أم ناثراً أن يصرف اهتمامه إلى كيفية أداء المعنى ضمن الأطر المحدودة الممنوحة له، وهذا لا يعني أنه سينقل اللغة بالمعنى مجاوزاً بذلك وظيفتها الأدائية التي تقوم عليها وتهدف من خلالها إلى الاهتمام المشترك بين اللفظ والمعنى .

إن التوفيق بين اللفظ والمعنى في وظيفتهما البلاغية يمنح المتلقي أو المستمع حرية يحرر من خلالها اللغة بحيث تصبح صورة للمعنى الذي يقصده، ويقف مع النص الذي يتأمله ويحاوره ليظفر بمعناه ويكشف عن

مغزاه بعد جهد وتفكير. يقول الحكيم الهندي :" ومن حقّ المعنى أن يكون الاسم له طبقاً ، وتلك الحال له وفقاً ، ويكون الاسم له وفقاً".[27]

يقول أبو هلال متأثراً بهذه الفكرة " وحقّ المعنى أن يكون الاسم له طبقاً، أي يكون الاسم طبقاً للفظ بقدر المعنى غير زائد عليه ولا ناقص عنه ، واستشهد على هذه المطابقة بقول امرئ القيس :

طبق الأرض تحرّى وتدُرّ.[28]

ويستشهد بقول العتابي" الألفاظ أجساد والمعاني أرواح، وإنما تراهما بعيون القلوب، فإذا قدمت منها مؤخرا أو أخرت مقدماً، أفسدت الصورة وغيرت المعنى، كما لو حوّل رأس إلى موضع يد إلى موضع رجل لتحولت الخلقة وتغيرت الجبلة".[29]

أثر االصحيفة الهندية علي معاصري الجاحظ و ابي هلال

لقد اتكأ كثير من النقاد والبلاغيين العرب القدماء والمحدثين في كتاباتهم النقدية والبلاغية على كثير من القضايا التي أثارتها بعض الصحف البلاغية أمثال صحيفة بشر بن المعتمر والصحيفة المعروفة بالصحيفة الهندية من خلال ما أثاروه من قضايا نقدية حول شروط البلاغة وقضية اللفظ والمعنى وما يتمثله الخطيبوالشّاعر من قواعد البلاغة في لفظ اللغة ومعانيها. إذ لم يخل أثر هذه القضايا على معاصري الجاحظ وأبي هلال أمثال ابن قتيبة، في كتابه" طبقات الشعراء" وقدامة بن جعفر في كتابه" نقد الشعر " وعبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز" وابن رشيق القيراوني في كتابه" العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده".

ومما يلفت النظر إلى أن هذه الصحيفة كانت متكأ في كتب هؤلاء النقاد في قضية اللفظ والمعنى وبعض القضايا البلاغية والنقدية، والتي أخرجت البلاغة إلى حيز الوجود ضمن الأسس والقواعد التي أتقنها باحثوا الأدب العربي

إن قضية اللفظ والمعنى من أبرز القضايا النقدية والبلاغية التي اشتد الصراع حولها في القرنين الثاني والثالث الهجريين، وأن تخير اللفظ أحيانا أصعب من جمعه وتأليفه، وأن البحث عن معنى أحيانا يكون عمل شاقا مثل من يريد أن يبحث عن لفظ يناسب هذا المعنى حتى يحصل عليه ويجمعه ويخرجه في صورة معبرة.

ولو وقفنا عند الجاحظ في مسألة اللفظ والمعنى، تلك المسألة التي تناولها من قبل بشر بن المعتمر والحكيم الهندي لوجدناه يطرح هذه القضية متأثرا فيها بما دار في كتابات الإغريق والهنود من مسائل حولهما. يقول: إن

المعاني مطروحة في الطريق، يعرفها العجمي والعربي، البدوي والقروي، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخيّر اللفظ، وسهولة المخرج، وفي صحة الطبع، وجودة السبك".[30]

وأولى عنايته بمسألة اللفظ وأهميته وأثره على المعنى، إذ رأى أن الكلام البليغ هو الكلام الذي يسابق لفظه معناه و معناه لفظه. يقول الجاحظ :" وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ، ومعناه في ظاهر لفظه، فإذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليغاً وكان صحيح الطبع بعيداً عن الاستكراه ، ومنزهاً عن الاختلال ، ومصوناً عن التكلف ، صنع في القلوب صنع الغيث في التربة الكريمة".[31] وقال:" وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميا، وساقطا سوقيا، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبا وحشيا، إلا أن يكون المتكلم بدويا أعرابيا، فإن الوحشيّ من الكلام يفهمه الوحشي من الناس، كما يفهم السوقيّ رطانة السوقي. وكلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسهم في طبقات. فمن الكلام الجزل والسخيف، والمليح والحسن، والقبيح والسمج، والخفيف والثقيل، وكله عربي، وبكلّ قد تكلموا، وبكلّ قد تمادحوا وتعايبوا.[32]

ويشير إلى أثر اللفظ وأهميته، والذي يفترض فيه أن يسابق المعنى بقوله:" أنذركم حسن الألفاظ، وحلاوة مخارج الكلام، فإن المعنى إذا اكتسى لفظا حسنا وأعاره البليغ مخرجا سهلا، ومنحه المتكلم دلا متعشقا، صار في قلبك أحلى، ولصدرك أملا. والمعاني إذا كسيت الألفاظ الكريمة، وألبست الأوصاف الرفيعة، تحولت في العيون عن مقادير صورها، وأربت على حقائق أقدارها، بقدر ما زينت، وحسب ما زخرفت.[33]

ونصَّ على أن الألفاظ المترادفة مختلفة في الدلالة ، فليس هنالك لفظ يساوي لفظاً آخر مساواة تامة في دلالته ومعناه ، وإذا كانت الألفاظ من واد واحد ، فإن كلا منها يستقل بمرتبة من مراتب المعنى ، ويدل على ظل من ظلاله ، فألفاظ الشجاع والبطل والبُهْمَةُ والأليس -- مثلاً -- إنما هي ظلال متدرجة لمعنى الشجاعة من بدايتها إلى غايتها.

أما أبو هلال العسكري، فمدار حيثه في كتاب الصناعتين حول قضية اللفظ والمعنى التي كانت مدار الصحيفة الهندية والصحفية البلاغية الأخرى كصحيفة بشر بن المعتمر، حيث ظهر تأثره واضحا وتركيزه على اللفظ والمعنى في مختلف قضاياه النقدية والبلاغية التي تناولها في كتابه.

كانت آراء أبي هلال العسكري مختلفة في نظرته إلى اللفظ والمعنى، واعتقاده بأن المزية أولا للفظ دون المعنى، جريا على الخط المعتزلي الذي تبناه كثير من النقاد في العصر العباسي، ويشير إلى عدم قبوله اقتصار البلاغة على الإيصال فحسب، ولكن تمشيا مع قناعته الراسخة في عملية الخلق الأدبي التي يقول فيها" إذا أردت أن تصنع كلاما فأخطر معانيه ببالك وتنوق له كرائم الألفاظ".[34]

ويؤكد أبو هلال نظرت للألفاظ بوصفها الأداة الأولى في توصيل المعاني أن الخطب الرايعة، والأشعار الرايقة، ما عملت لإفهام المعاني فقط، لأن الردئ من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها في الإفهام، وأكثر أوصاف الشعر والنثر ترجع إلى الألفاظ دون المعاني، ولهذا فإن تأنق الكاتب في الرسالة والخطيب في الخطبة ، والشّاعر في القصيدة يدل على براعته في انتقاء ألفاظه.[35]

لقد كان تأثر ابن قتيبة واضحاً في هذه المسألة من خلال تقسيمه للشعر من حيث اللفظ والمعنى إلى الأقسام الأربعة التي ذكرها في كتابه وهي أربعة أضرب، ضرب حسن لفظه وجاد معناه ، وضرب حسن لفظه وحلا ، وضرب منه جاد معناه وقصرت ألفاظه ، وضرب تأخر معناه وتأخر لفظه".[36]

إن قضية اللفظ والمعنى بالصورة التي وضعها ابن قتيبة، وتأثر فيها من قبل بالجاحظ الذي تأثر من قبل بالأدب الإغريقي والفارسي وتراثهم، قد استهوت ناقداً مثل قدامة بن جعفر ليفرد لها أبواباً متعددة، منها لعيوب اللفظ وأخرى لمحاسنه، وعلى هذا فإنّ الشعر عنده يتألف من أربعة أشياء، الوزن، اللفظ، القافية، المعنى وكلّ واحد من هذه الأشياء قد يكون رديئاً ، ثمّ أخذ قدامة في بيان صفات الجودة والرداءة في كلّ واحد منها ، فتناول اللفظ وحدد الخصائص والصفات التي إذا توافرت فيه كان جيداً، ثمّ ذكر العيوب التي إذا وجدت فيه كان رديئاً إن قدامة في نظرته إلى اللفظ والمعنى قد فصل بينهما .

إن تأثر قدامة بمن سبقة من النقاد كان واضحاً في كتبه التي ألفها وأهمها كتاب" نقد الشعر" إذ اتضحت ثقافته المتنوعة، وتجلت فيه معرفته الواسعة بالشعر العربي وأصوله البلاغية وقواعد نظمه إلى جانب ثقافته الفلسفية واطلاعه على التراث الإغريقي الذي ترجم قسم كبير منه إلى اللغة العربية فكان كتابه ثمرة هذا التفاهل بين الأدب العربي وثقافته العربية وتراث الإغريق وفلسفتهم.

ويفرض هذا التأثر بالصحيفة الهندية نفسه على عبد القاهر الجرجاني كما فرض نفسه على قدامة بن جعفر، ليقف عند العلاقة الوثيقة التي تربط الألفاظ والمعاني، إذ رأى أن البلاغة أو الجمال الفني ليس في اللفظ والمعنى وحدهما، وإنما في التراكيب كاملة أو في العلاقة بين الألفاظ في العبارات وما ينتج عن هذه العلاقة من معان، وقد سمى هذه العلاقات بالنظم ورأى أنه ليس الغرض الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض.[37] ويرى أنه ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق، بل إن تناسق دلالاتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل وكيف يتصور أن يقصد به إلى توالي الألفاظ في النطق بعد ثبت أنه يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وأنه نظير الصياغة واتحبير والتفويف والنقش، وكلّ ما يقصد به التصوير، ولو كان القصد بالنظر إلى الفظ نفسه دون أن يكون الغرض ترتيب المعاني في النفس ثم النطق بالألفاظ على حدودها لكان ينبغي أن لا

يختلف حال اثنين في العلم بالنظم الحسن، وغير الحسن لأنهما يحسان بتوالي الألفاظ في النطق إحساساً واحداً لا يعرف أحدهما في ذلك شيئاً بجمله الآخر.[38]

ويدور حديث ابن رشيق القيراوني في كتابه" العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده". حول قضية اللفظ والمعنى، إذ لم يرق له مثل هذا الفصل الذي أحدثه الجاحظ وأبي هلال العسكري ليخرج بتصور جديد عن العلاقة بين اللفظ والمعنى، وأن الصفة بينهما صفة تلازم ، وما يصيب أحدهما من فساد يصيب الآخر.

لقد عقد القيرواني فصلاً لبحث قضية اللفظ والمعنى وفيه رأى أن " اللفظ جسم وروحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم، يضعف بضعفه ، ويقوى بقوته، فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصاً للشعر وهجنة عليه، كما يعرض لبعض الأجسام من العرج والشلل والعور، وما أشبه ذلك من غير أن تذهب الروح وكذلك إن ضعف المعنى واختل بعضه كان اللفظ من ذلك أوفر حظاً كالذي يعرض للأجسام من المرض بمرض الأرواح ولا تجد معنى يختل الا من جهة اللفظ وجريه فيه على غير الواجب قياساً على ما قدمت من أدواء الجسوم والأرواح، فإن اختل أصل المعنى كله وفسدد بقي اللفظ مواتاً لا فائدة فيه ".[39]

من هذا المنطلق فقد بدا تأثر ابن رشيق بهذه الصحيفة في تعريفه أيضاً للبلاغة، إذ يورد تعريفاً لها على لسان عبدالله بن محمد بن جميل المعروف بالباحث . يقول:" البلاغة الفهم والإفهام وكشف المعاني بالكلام ومعرفة الإعراب، والاتساع في اللفظ والسداد في النظم ، والمعرفة بالقصد ، والبيان في الأداء وصواب الإشارة وإيطاع الدلالة والمعرفة بالقول، والاكتفاء وبالاختصار عن الإكثار وإقضاء العزم على حكومة الاختيار".[40]

وكذلك فإن قضية اللفظ والمعنى دفعت بصاحب كتاب" الوساطة بين المتنبي وخصوصه أن يقف عند الأسلوب الذي يتبعه المؤلف، بل رأى أن تقسم الألقاظ على رتب المعاني، فلا يكون غزلك كافتخارك، ولا مديحك كوعيدك، ولا هجاؤك كاستنبطائك، ولا هزلك بمنزلة جدك ، ولا تعريضك بمنزلة تصريحك، بلل ترتيب كلاً مرتبته وتوفيه حقه.[41]

ويقول في موضع آخر:" فإن روعة اللفظ تسبق بك إلى الحكم، وإنما نتقضي إلى المعنى عند التفتيش والكشف".[42]

الخاتمة:

كشف التناول النقدي للصحيفة الهندية بعضا من القضايا النقدية والبلاغية التي كانت مرتكزا للتأليف الأدبي في فترة القرنين الثالث والرابع الهجريين، التي شغلت أذهان كثير من النقاد العرب والمسلمينفي تلك العصور.

ومن خلال دراسة محاور الصحيفة الهندية ومادتها، تبين الأثر الواضح عند كثير من النقاد وتأثرهم بما جاء فيها، حتى أصبحت مرتكزا ومنطلقا لهم نحو إبراز ما يجول ويصول في أنفسهم من معان حول طبيعة العملية الشعرية والنثرية والأسس التي يقومان عليها، وظهور بعض القضايا الفنية مثل قضية اللفظ والمعنى التي كان فيها الخط المعتزلي متأثرا بكثير من جوانب الفلسفة اليونانية في بواعث الإبداع والأسس التي يقوم عليها التي دار حولها كثير من المعارك النقدية، وتعدد وجهات نظر الأدباء فيها، أمثال الجاحظ، وأبي هلال العسكري، وابن قتيبة، وقدامة بن جعفر، وابن رشيق القيرواني.

هوامش وإحالات المقال

[1]- الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر(ت 255ه) ، البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ، دت ، ج1 ، ص92 .

[2]- ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (276ه)، عيون الأخبار ، تحقيق علي يوسف طويل ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1986 ، ج2 ، ص189 .

[3]- أبو هلال العسكري، الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري (395ه) الصناعتين ، تحقيق مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط2 ، 1981 ، ص30

[4]- إحسان عباس ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، دار الشروق للنشر والتوزيع عمان ، 1986 ، ص67.

[5]- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر ، البيان والتبيين، ج1 ، ص92 .

[6]- أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص31 .

[7]- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر،البيان والتبيين، ج1،ص 135.

[8]- المرجع نفسه، ج1،ص 139.

[9]- المرجع نفسه، ج1،ص 139.

[10]- المرجع نفسه، ، ج1، ص92-93.

[11]- أبو هلال العسكري ، الصناعتين ، ص73.

[12]- المرجع نفس، ص53.

[13]- المرجع نفسه، ص157.

[14]- عبد النبي اصطيف ، النص الأدبي والمتلقي ، مجلة الموقف الأدبي ، العددان 309-310 ، شباط ، 1997 ، ص13 .

[15]- المرجع نفسه، ص12.

[16]- المرجع نفسه، ص18.

[17]- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان، ج1، ص92-93.

[18]- عبد النبي اصطيف ، النص الأدبي والمتلقي ، مجلة الموقف الأدبي، ص18.

[19]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج1،ص 135.

[20]- أبو هلال العسكري ، الصناعتين ، ص153.

[21]- المرجع نفسه، ص154.

[22]- المرجع نفسه، ص154.

[23]- عزالدين إسماعيل المصادر الأدبية واللغوية غي التراث العربي، دار المعارف، مصر، ط2، 1980، ط2، ص137.

[24]- أبو هلال العسكري ، الصناعتين ، ص172.

[25]- المرجع نفسه ، ص174.

[26]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج1،ص 144.

[27]- المرجع نفسه، ج1،ص 139.

[28]- أبو هلال العسكري ، الصناعتين ، ص45.

[29]- المرجع نفسه، ص179.

[30]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج1،ص 144.

[31]- المرجع نفسه، ج1،ص 144.

[32]- المرجع نفسه، ج1،ص 139.

[33]- المرجع نفسه، ج1،ص 208.

[34]- أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص151.

[35]- ينظر،المرجع نفسه، ص73.

[36]- ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، تحقيق علي يوسف طويل ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1986 ، ج2 ، ص23 .

[37]- ينظر، عبد القاهر الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (471ه) ، دلائل الإعجاز ، تحقيق محمد التنجي ، دار الكتاب العربي ، ط2 ، 1997 ، ص13 .

[38]- المرجع نفسه، ص56 .

[39]- ابن رشيق، أبو الحسن علي بن رشيق القيرواني (456ه) العمدة في صناعة الشعر ونقده، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ج1، ط7، 1981 ، ص124 .

[40]- المرجع نفسه، ص247 .

[41]- القاضي الجرجاني، أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني (392ه) الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البيجاوي، منشورات، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت دت ، ص14 .

[42]- المرجع نفسه، ص25 .

المراجع:

1- إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الشروق للنشر والتوزيع ، عمان، 1986.

2- امرؤ القيس: الديوان ، شرح حسن السندوبي ، المكتبة الثقافية ، بيروت 1982.

3- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ، دت ، ج1.

4- ابن رشيقابن رشيق، أبو الحسن علي بن رشيق القيرواني (456ه): العمدة في صناعة الشعر ونقده ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ج1، ط7، 1981.

5- عبد القاهر الجرجانيعبد القاهر الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (471ه): دلائل الإعجاز ، تحقيق محمد التنجي ، دار الكتاب العربي، ط2، 1997 .

6- عبد النبي اصطيف: النص الأدبي والمتلقي، مجلة الموقف الأدبي، العددان 309-310، شباط، 1997، ص13 .

7- القاضي الجرجانيالقاضي الجرجاني، أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني (392ه): الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، وعلي محمد البيجاوي ، منشورات، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت دت .

8- ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (276هـ): الشعر والشعراء ،تحقيق مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ط2 ، 1985 ، ص22.
9- ابن قتيبة: عيون الأخبار ، ج2، تحقيق علي يوسف طويل، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1986 .
10- محمود عارف الأكحل: الفصحى والعامية ، الأديب ، فبراير ، 1959 ، ج2 ، م35 .
11- أبو هلال العسكري، الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري (395هـ): الصناعتين، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1981 .